

الترجمة والأدب البيئي: مقارنة نظرية وتطبيقية في سياق الرواية

Translation and Environmental Literature: A Theoretical and Applied Approach in the Novelistic Context

موحوش خيرة

Mouhaouche Kheira

جامعة أحمد بن بلة وهران 1 - وهران (الجزائر)، mouhaouche.kheira@edu.univ-oran1.dz

تاريخ النشر: 2025/12/28

تاريخ القبول: 2025/11/08

تاريخ الاستلام: 2025/10/01

ملخص:

يروم البحث إلى استكشاف العلاقة بين الترجمة والأدب البيئي نظريًا وتطبيقيًا، فيتناول الحقل من حيث المفهوم والنشأة والتطور، ويعرض أعلامه وخصائصه الفنية، ويبيّن دور النقد البيئي في قراءة النصوص. ثم يتناول دراسة ترجمة الأدب البيئي وتحليل تحدياتها كنقل الصور الإيكولوجية وتمثيل اللهجة المحلية، و ترجمة العناصر الثقافية المرتبطة بالبيئة، وتحسيد صوت الطبيعة في اللغة الهدف. ومن أهم النتائج المتوصل إليها، أن ترجمة الأدب البيئي فنّ مركّب لا إجراء تقني؛ فهي تستلزم إلمامًا مزدوجًا بحساسيات النصّ الأصلي وطاقت التعبير في اللغة الهدف، وأنّ الدقّة اللغوية وتوحيد المصطلح واتساق السجلّ الأسلوبي؛ هي شروطٌ تشغيلية لتمكين صوت الطبيعة في النص المنقول، فكلما انضبطت المفردات البيئية والعلمية وتلاءم الإيقاع والتركيب مع خصوصية المكان والرمز، استعاد النص المترجم كثافته الحسية ورموزه الإيكولوجية.

كلمات مفتاحية: الأدب البيئي، النقد البيئي، الترجمة، الإيكولوجية، الطوبونيميا

Abstract:

This study explores, theoretically and practically, the relationship between translation and environmental literature. It outlines the field's concept, origins, development and profiles. Besides its major figures and aesthetic features, it clarifies the role of ecocriticism in textual interpretation. It, then, examines the translation of environmental literature and analyzes its challenges rendering ecological imagery, its local dialects, translating culture-specific environmental elements and voicing nature in the target language. The findings indicate that translating environmental literature is a complex art, rather than a technical procedure: it requires dual competence in the source text's ecological cultural sensitivities and the expressive resources of the target language. Linguistic precision, terminological consistency and register coherence are operational conditions for enabling nature's voice in translation. When environmental scientific lexis is controlled and rhythm and syntax align with place and symbol-specificity, the translated text regains its sensory density and ecological symbolism.

Keywords: Environmental Literature; Ecocriticism; Ecological; Translation;

Toponymy

المؤلف المرسل: موحوش خيرة، الإيميل: mouhaouche.kheira@edu.univ-oran1.dz

1. مقدمة:

شهدت السنوات الأخيرة تناميًا ملحوظًا في الخطابات الداعية إلى حماية البيئة من الآثار السلبية المترتبة عن التدهور المستمر في النظم الإيكولوجية؛ نتيجة التوسع الصناعي والاستخدام المفرط للطاقة الأحفورية والكيماويات. وقد تجاوز هذا الوعي المجال البيئي الطبيعي ليغدو قضية مركزية في معظم الحقول المعرفية، فامتدّ ليشمل الزراعة والصناعة والهندسة والسياسة، ولم يكن الأدب بمنأى عن هذه التحولات؛ فأصبح في إطار هذا الوعي المتزايد؛ منبرًا مهمًا للتعبير عن القلق البيئي وتمثّل علاقة الإنسان بمحيطه الحيوي، وأخذت تتبلور أيديولوجيا بيئية خضراء، وفلسفة إيكولوجية ذات أسس معرفية وأخلاقية، وجدت في المتون الأدبية حاضنة خصبة لتطورها وانتشارها.

ضمن هذا السياق نشأ اتجاه أدبي جديد يُعرف بـ"الأدب البيئي" أو "الأدب الإيكولوجي" يُعنى بالتفاعلات المعقّدة بين الكائن البشري ومحيطه الطبيعي، ويطمح إلى مساءلة تمثّلات الطبيعة في النصوص الأدبية، ليس فقط بوصفها خلفية للأحداث، بل باعتبارها كيانًا فاعلًا وموضوعًا أخلاقيًا وثقافيًا. ويتسم الخطاب البيئي الأدبي بالجمع بين الرؤية العلمية والطرح العملي، مما أضفى عليه بعدًا نقديًا جديدًا يتجاوز النزعة الجمالية إلى التزام أخلاقي وبيئي واضح.

وإذا كان هذا الأدب قد أدى دورًا مهمًا في تشكيل وعي بيئي نقدي داخل ثقافته الأصلية، فإن نقله عبر الترجمة إلى ثقافات أخرى قد يثير مجموعة من الإشكاليات، تتعلق بكيفية تمثيل الخطاب البيئي وإعادة موضعيته في لغات وثقافات مختلفة، وما إذا كانت الترجمة قادرة على نقل البعد الإيكولوجي للنص دون إخلال بالمعنى أو تشويه في المبنى، فالترجمة هنا لا تقتصر على تحويل لغوي، بل تنطوي على عبور ثقافي يتطلب إعادة خلق الحساسية البيئية والمفردات الطبيعية، والمضمرات الإيديولوجية المصاحبة لها.

انطلاقًا من هذا الطرح، تعالج هذه الدراسة إشكالية ترجمة الأدب البيئي بين اللغات والثقافات، ومدى قدرة الترجمة على الحفاظ على البنية الخطابية والإيديولوجية للنصوص البيئية، والسؤال الذي نطرحه ونحاول الإجابة عنه:

- إلى أي مدى تُسهّم الترجمة في تعزيز الوعي البيئي العابر للثقافات، وهل تخضع لمقتضيات الحو الثقافي والتكيف السياقي الذي يفرغ النص من مقصديته الإيكولوجية؟

- وما هي أبرز التحديات اللغوية والثقافية والتداولية التي تواجه المترجم عند نقل هذا النوع من الأدب، خاصةً إذا تعلق الأمر بلغات لا تملك مفردات بيئية متخصصة أو لا تتقاطع معرفيًا مع المرجعيات البيئية الغربية؟

يهدف هذا البحث إلى استكشاف العلاقة بين الترجمة والأدب البيئي من الجانب النظري كما التطبيق، وعليه سيتم تناول هذا الحقل الأدبي الحديث من حيث المفهوم والنشأة والتطور، وتسلط الضوء على أبرز أعلامه وخصائصه الفنية، بالإضافة إلى توضيح مفهوم النقد البيئي ودوره في قراءة النصوص، ثم ينتقل البحث لمداورة ترجمة الأدب البيئي وتحليل أبرز التحديات التي تواجه المترجم عند نقل هذا النوع من النصوص، كترجمة الصور البيئية واللهجة المحلية، والعناصر الثقافية الخاصة بالبيئة، وتحسيد صوت الطبيعة في النص. كما يتضمن القسم التطبيقي دراسة مثال لرواية بيئية مترجمة إلى العربية مع تحليل كيفية تعامل الترجمة مع المكونات البيئية في النص.

2. الأدب البيئي: المفاهيم التأسيسية والبدائيات

في كتابه الصادر عام 1972، *The Comedy of Survival: Studies in Literary Ecology*، وضع جوزيف ميكر (Joseph Meeker) اللبنة الأولى لما يعرف بـ«الإيكولوجيا الأدبية» والذي ربط فيه بين النص الأدبي والحس البيئي، من خلال نظرة نقدية للأشكال الأدبية ومدى تعبيرها عن علاقة الإنسان بالطبيعة واستعداده للبقاء ضمن النظم البيئية. وبعد سنوات قليلة وتحديداً سنة 1978، استحدث ويليام روكيرت (William Rueckert) مصطلح النقد البيئي، في مقالته *"Literature and Ecology: An Experiment in Ecocriticism"* التي نشرت لأول مرة في المجلة الأدبية المرموقة *The Iowa Review*، حلل فيها نصوصاً لأدباء تناولوا البيئة والطبيعة بصورة نقدية متميزة، وعلى إثر هذه الدراسة انطلق الاهتمام بالأدب البيئي مطلع ثمانينات القرن الماضي، متأثراً بتطور الدراسات البيئية والمفاهيم الإيكولوجية. وتجدر الإشارة إلى أن هذا المجال لا يزال في مراحله التأسيسية الأولى، خاصة في المشهد العربي؛ إذ لم يظهر لدينا حتى اليوم سوى عدد محدود من الدراسات المنهجية التي أسست لهذا التخصص، رغم توفر أعمال أدبية عربية وُظفت في هذه الدراسات، ما يشير إلى حاجة ملحة لتوسيع النشاط الأكاديمي في هذا الميدان المتجدد.

يمثل الأدب البيئي أو أدب البيئة إذن؛ تياراً أدبياً حديثاً يركز على تصوير علاقة الإنسان بالعالم الطبيعي في المتن الإبداعي، وقد برز هذا المصطلح ضمن تطور نقدي أوسع يُعرف بـالنقد البيئي (Ecocriticism) وهو مجال نقدي يفحص تمثيلات البيئة والمنظومة الطبيعية في الأعمال الأدبية، إلا أن هذا التيار لم يترسخ كمجال مستقل إلا في أوائل التسعينيات من القرن الفائت، إذ شهدت هذه الفترة في الولايات المتحدة الأمريكية الانطلاقة الفعلية للنقد البيئي كمجال أكاديمي منظم وذلك بالتوازي مع تنامي الاهتمام العام بالأزمة البيئية عالمياً.

في تلك المرحلة التأسيسية، صدرت أعمال هامة بلورت مفهومي الأدب والنقد البيئيين، ففي مقدمة كتابها "قارئ النقد البيئي" عرّفت الباحثة شيريل جلوتفيلتي (Cheryll Glotfelty) النقد البيئي بأنه دراسة العلاقة بين الأدب والبيئة الفيزيائية، وأنه يضع قدماً في الأدب وقدمًا في علم البيئة، ويسعى لرصد التقاطعات بين النصوص الثقافية والعالم الطبيعي (Kovářová, 2019, p. 43). أما الباحث لورانس بوويل (Lawrence Buell) فقد قام بوضع معايير للعمل الأدبي الإيكولوجي في كتابه "الخيال البيئي"، إذ رأى أن النص الأدبي لا يكون نصاً بيئياً إلا إذا توافرت فيه بعض الخصائص؛ كحضور البيئة غير البشرية حضوراً فعالاً وبشكل أكثر من مجرد خلفية سردية، وبوصفها عملية ديناميكية لا مجرد معطى ثابت، وأن يتضمن النص منظوراً أخلاقياً يدرك مسؤولية الإنسان تجاه البيئة (Buell, 1995, p. 2)، وقد شكّلت المعايير التي اقترحها لورنس بوويل إطاراً مرجعياً نقدياً يُحتكم إليه في تمييز الأدب البيئي عن غيره من الأجناس الإبداعية الأخرى، وأسهمت في بلورة خصائص هذا الأدب وتحديد ملامحه المفهومية والمنهجية.

ويمكننا القول أن الأدب الإيكولوجي ينطوي على نقد جذري للنزعة الإنسانية المركزية (Anthropocentrism)، التي تُكزّس استعلاء الإنسان وتفصله عن بقية الكائنات الحية، باعتباره الكائن الأسمى

والمهيمن ضمن النظام الكوني، متجاهلة بذلك الترابط البيئي بينه وبين بيئته. وقد حفّزت هذه الرؤية الجديدة للأدب؛ اهتمامًا متزايدًا بدراسة أعمال أدبية سابقة ولاحقة من منظور بيئي.

3. تطور الأدب البيئي وأبرز أعلامه:

أسهم هذا التصوّر الجديد في الدفع بتطور الأدب البيئي بصورة لافتة منذ أواخر القرن العشرين، حيث برزت على الساحة الأدبية العالمية أعمالاً نوعية اتخذت من البيئة محوراً جوهرياً لتجربتها الإبداعية وجعلت منها منطلقاً لرؤى جمالية وفكرية متجددة. غير أنّ هذا الحقل الأدبي لم يخلُ من محاولات باكرة مهدت لظهوره، من أبرزها رواية Henry David Thoreau هنري ديفيد ثورو Walden سنة 1854، التي تُعد من أوائل النصوص التي احتفت بالحياة في كنف الطبيعة، ودعت إلى تبني نمط عيش بسيط ومنسجم مع المحيط الطبيعي. وعلى الرغم من سبقه لعصر نشوء النقد البيئي بقرن ونصف، غالباً ما يُستدعى ثورو بوصفه رائداً فكرياً لهذا التيار الأدبي، نظراً لرؤيته الاستشرافية عن الطبيعة والبيئة. أما في القرن العشرين أصدرت راشيل كارسون (Rachel Carson) كتابها "الربيع الصامت" Silent Spring سنة 1962، والذي دقّت من خلاله ناقوس الخطر تجاه التلوث البيئي وأثر المبيدات على النظام الحيوي، ويُعتبر هذا الكتاب علامة فارقة في الأدب الأيكولوجي؛ لدججه بين الأسلوب الأدبي والطرح العلمي، كما ألهم حركات حماية البيئة حول العالم، وخلف أثراً بالغاً في إعادة تشكيل النظرة الإنسانية إلى العالم الطبيعي، من خلال كشفه عن الأبعاد الخفية للعلاقة بين الإنسان والبيئة.

ومن الروائيين المعاصرين الذين عالجوا ثيمات بيئية نذكر باربرا كينجسولفر (Barbara Kingsolver) في روايتها "سلوك الفراشة" (Flight Behavior) والتي تناولت إشكاليات التغير المناخي من خلال تتبع مسار امرأة شابة تقطن مزرعة ريفية وتكابد أزمات اقتصادية ومعيشية حادة، ما يجعل من تجربتها مرآةً لانعكاسات الأزمة البيئية على الفئات الهشة في المجتمع، وقد صنّفتها صحيفة نيويورك تايمز ضمن قائمة الروايات الأعلى مبيعاً، كما رُشّحت لنيل لقب "أفضل كتاب في العام". وعُرف الروائي ريتشارد باورز (Richard Powers) بروايته الشهيرة سنة The Overstory 2018 (ظلة الغاب)، هي عمل روائي بيئي حائز على جائزة بوليتزر للرواية عام 2019، ويدور حول الدفاع عن الغابات ومقاومة تدمير الطبيعة.

كما أسهم بعض الشعراء في إثراء الأدب البيئي، مثل الشاعر الأميركي غاري سنايدر (Gary Snyder) الذي تستلهم قصائده الطبيعة والفلسفات البيئية، ويُعد سنايدر من أبرز الأصوات الأدبية التي ربطت بين التجربة الشعرية والتأمل البيئي العميق، حيث تجسّد قصائده رؤية كونية تُعلي من شأن الطبيعة، وتتفاعل معها لا بوصفها موضوعاً شعرياً فحسب؛ بل ككائن حيّ مشترك في الوجود، ولا يقف سنايدر عند حدود الوصف الجمالي للطبيعة، بل يتخذ من الشعر منبراً لمساءلة علاقة الإنسان بالعالم من حوله، منتقداً نمط الحياة الاستهلاكية، فشعره يتجاوز كونه تعبيراً ذاتياً ليغدو شكلاً

من أشكال "البيو-شعرية" (bio-poetics) (Dahal, 2021, p. 3) حيث تتداخل الأبعاد البيئية والروحية والثقافية في نسيج لغوي شديد الكثافة والشفافية في آن معاً.

أما الكاتب الأمريكي كيم ستانلي روبنسون (Kim Stanley Robinson) فيُعد من أبرز رواد الخيال العلمي البيئي (climate fiction أو cli-fi) في القرن الحادي والعشرين، وهو ليس فقط روائي خيال علمي، بل منظر بيئي أيضاً تُدرّس أعماله في مجالات الأدب البيئي والخيال المستقبلي والنقد السياسي، وخبير استشاري يعيد تخيل مستقبل الكوكب، ويعد أول كاتب كرّس روايات ضخمة لتخيل مستقبل الأرض المتأثر بتغير المناخ، ويتميز بتعدد أعماله التي تجمع بين الرؤية المستقبلية والنقد البيئي والتحليل السياسي والاقتصادي. تُترجم أعمال كيم القلق الإنساني الكبير حول مصير الكوكب، ويمزج فيها بين الخيال العلمي والتاريخ والبيئة واليوتوبيا، منها ثلاثية المريخ *Mars Trilogy* والتي لا تتناول فقط تقنيات الاستعمار الفضائي، بل تناقش الهندسة البيئية (terraforming)، والأنظمة السياسية البديلة والمساواة والصراعات الأخلاقية بين البشر والطبيعة. وروايته *The Ministry for the Future* الصادرة سنة 2020، وهي رواية هجينة تجمع بين الخيال العلمي والمحاكاة السياسية وعلم الاقتصاد وعلم المناخ، تدعو إلى تأسيس وزارة أممية تُعنى بمكافحة تغير المناخ بعد كارثة موجات حرارة قاتلة في الهند، وتُعد من أهم أعماله وأكثرها جرأة، من حيث أنها تركز على التفاعل العالمي الحقيقي مع أزمة المناخ. هذه الروايات وغيرها كثير لكيم ستانلي لم تكن مجرد تحذيرات، بل أعمال تخيلية معقدة في سياسات الأرض ومصير البشرية.

تأخر ظهور الأدب والنقد البيئيين حتى أوائل الألفية الثالثة في السياق العربي، ويمكن القول أن العقد الأول من القرن الحالي شهد بواكير الاهتمام بالنقد البيئي، والذي اتخذ ثلاث مسارات متوازية: مسار الترجمة ومسار الدراسات التطبيقية ومسار الدراسات النظرية التعريفية، وتجدر الإشارة إلى أن الترجمة كانت نافذة مهمة للتعرف على النقد الأدبي البيئي في العالم العربي؛ إذ قدّم مترجمون عرب إسهامات رائدة في نقل هذا المجال إلى العربية، ونذكر على سبيل المثال الباحث والمترجم معين رومية، الذي قام بترجمة مقال الناقد الأميركي مايكل برانش "النقد الإيكولوجي" ونشره عام 2007 في دورية "نوافذ" السعودية، حرص رومية في مقدمة ترجمته على وضع النقد الإيكولوجي في سياقه المعرفي، بوصفه تياراً معاصراً نشأ بفعل توسّع الدراسات البيئية لتشمل العلوم الإنسانية. كما سعى إلى تأصيل مفهوم "الإيكولوجيا" من خلال تتبع دلالاته وتحولاته المفاهيمية عبر التاريخ (مايكل، 2007، الصفحات 27-51). أصدر رومية سنة 2009 مختارات مترجمة من الشعر البيئي العالمي في مجلة "الأدب العالمية"، تضمنت قصائد مختارة للشاعر الأميركي غاري سنايدر Gary Snyder، من بينها قصيدة "Prayer for the Great Family" "صلاة من أجل الأسرة الكبرى"، التي تتغنّى بجمال الطبيعة وتعبر عن امتنان عميق لعناصرها في إطار روحاني يحتفي بالتناغم الكوني. وقد ساعدت هذه الترجمات في تحديد سمات النص الأدبي البيئي للقارئ العربي، وإبراز وعي المترجمين بطبيعة هذا الأدب.

زيادة على هذا، ظهرت ترجمات عربية لأعمال تنظيرية هامة في النقد البيئي، مثل ترجمة عزيز صبحي جابر لكتاب النقد البيئي "Ecocriticism". للناقد البريطاني Greg Garrard جريج جاربارد، تميز هذا الكتاب بتقديم

نظرة شمولية عن النقد البيئي، حيث قدّم تعريفًا دقيقًا للمجال وأكد على بعده السياسي، بوصفه نمطًا تحليليًا يكشف تأثيرات القوة على البيئة، كما وضع الكاتب معايير إجرائية لتمييز النصوص ذات النزعة البيئية، من خلال تحليل نماذج سردية تكشف عن التفاعل بين الإنسان والعالم الطبيعي في سياقات ثقافية وأيديولوجية متنوعة (جرّاد، 2009).

انفتح الباب واسعًا أمام الأبحاث البيئية العربية، بفضل هذه الجهود الترجمية والتأليفية، وبرزت أسماء باحثين عرب نشطوا في هذا المجال، صدر عنهم كتب ومقالات تؤصل للنقد الأدبي البيئي باللغة العربية، وتطبق مناهجه على نصوص الأدب العربي القديم والحديث، فألف أبو الفضل بدران كتاب "النقد الأدبي البيئي: النظرية والتطبيق" (2010)، وجميل حمداوي "النقد البيئي أو الإيكولوجي في الأدب والفن" بالاشتراك مع حسن إعراب، وتدرّج إسهامات حمداوي ضمن بواكير التنظير العربي للنقد البيئي في مقالات ومسوح حديثة تناولت نشأة الحقل ومساراته عربيًا، وكتب عبد الحميد الحسامي إحدى أوائل الدراسات العربية التطبيقية في النقد البيئي بعنوان: «الضباب أتى.. الضباب رحل: قراءة من منظور بيئي» نُشرت في مجلة علامات في النقد الأدبي سنة 2009 (جدة)، وهي دراسة مبكرة لفتت الانتباه إلى إمكان قراءة النص العربي من منظور بيئي، وتعدّ مقالة مرجعية ضمن بواكير الاشتغال العربي في هذا الحقل. وبالتوازي مع ما تقدّم نُظمت مؤتمرات وندوات ناقشت إشكاليات البيئة في الأدب العربي، مما يدل على تنامي الاهتمام المحلي بهذه المقاربة النقدية المستجدة.

ضمن المشهد الروائي العربي الراهن، أخذت تتبلور أعمال تستلهم القلق البيئي وتُعلي من حساسيته الجمالية والفكرية على نحوٍ صريح، على سبيل المثال رواية «حرب الكلب الثانية» للروائي الفلسطيني إبراهيم نصر الله، الحائزة على الجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر) لعام 2018، والتي تمثّل نموذجًا دالًّا على هذا المنحى؛ ببنيته الخطابية التحذيرية إذ ترسم مستقبلًا ديستوبيًا للبيئة والمناخ، وقد استقطبت قراءات إيكولوجية أعادت تأويلها في أفق الأخلاق البيئية وبيّنت أدواتها الأسلوبية في بناء خطاب التحذير من انخباز المنظومات الطبيعية.

وعلى ذات المنوال، قدّمت الروائية لطيفة الدليمي في روايتها «حديقة حياة» مادة سردية قابلة لقراءة بيئية نسوية تُقارب علاقة المرأة بالطبيعة بوصفها شبكة مقاومة لخطاب السيطرة والاستغلال، وأمّا الكاتب الليبي إبراهيم الكوني؛ فيُعدّ من أبرز من اشتغلوا على علاقة الإنسان بالصحراء في منجزه الروائي، ويظهر ذلك جليًا في «نزيف الحجر» وهي من أهم أعمال السرد البيئي العربي، حيث تتداخل الأسطورة والميتافيزيقا مع تمثيلات روحانية لناسكٍ من الطوارق، يرتبط بعلاقة روحية مع حيوان الودّان (الكبش البربري) ثم يصطدم بصيّادين فتتبدّى له مفارقة القيم، اقتصاد النهب مقابل أخلاقيات الرعاية، ينتهي الصراع بمأساة تُفصح عن الثمن الباهظ الذي تكلفه حماية الكائنات والفضاء الطبيعي. إن هذه الأمثلة مجتمعة تُشير إلى تنامي الأدب البيئي العربي كحقل إبداعيّ آخذٍ في التشكل، مدعومًا بجهود نقدية وترجمية لإثراء الخطاب البيئي في الثقافة العربية المعاصرة.

4. الخصائص الأدبية للأدب البيئي:

تنهضُ فرادةُ الأدب البيئي على منظومةٍ من السمات الشكلية والشميّة، تمنحه هويّةً خاصة ضمن الأجناس الأدبية الأخرى من حيث أنه يسعى إلى زحزحة المركزية البشرية عبر إسناد تفويض سردي للطبيعة؛ فلا تُعامل بوصفها

ديكوراً ثابتاً بل كياناً فاعلاً يشارك في إنتاج المعنى ودفع الحبكة، ويتجلى ذلك في تقنيات سردية كتعدد البؤر والالتفات إلى منظور غير بشري، أو عبر التشخيص والتجسيد اللغوي للكائنات والعناصر الطبيعية. بهذا يفتح النص الإيكولوجي على أفق معرفي يُساكن فيه الإنسان الكائنات الأخرى بدل التحدث باسمها، ويُعيد موازنة المصالح بين ما هو بشري وغير بشري (Buell, 1996, pp. 7-8). وتترافق هذه الرؤية مع نزعة نقدية واضحة تُراجع أنماط الاستهلاك، وتعري كُلف التغير المناخي وفقدان التنوع الحيوي، مؤكدة مسؤولية الإنسان الأخلاقية تجاه النظم الإيكولوجية وضرورات العدالة البيئية في التمثيل والسلوك.

أما أسلوبياً ودلالياً؛ يستثمر الأدب البيئي لغةً حسية دقيقة تُكتف تفاصيل المكان والمناخ والأصوات والروائح، وتستعير صورها من المعجم الطبيعي لتصوغ معرفةً بالحواس، كما يوازن بين واقعية وصفية صارمة ويُعيد روحاني أسطوري بمنح الطبيعة قيمةً تتجاوز النفعية، فتغدو فضاءً للتأمل والذاكرة والقداسة الثقافية، ويقدمها بوصفها سيرورةً دينامية لا تُحتزل في ثابت جغرافي، كدورات الفصول والهجرة والنمو بل تُعيد شبك زمن البشر بزمن البيئة، وتذكر بأن التغير قانونٌ كلي لا استثناء فيه (Buell, 1996, pp. 7-8). بهذا تتكوّن فرادة الأدب البيئي من تداخل عضوي بين أخلاقيات العلاقة بالطبيعة وآليات تمثيلها سرداً ولغةً، سواء أكان النص روايةً أم قصيدةً أم كتابةً رحلةً أو مقالةً تأملية. باختصار يُزاج الأدب البيئي بين جماليات تمثيل الطبيعة ولغتها الحسية، وبين موقف معرفي أخلاقي يُعيد مساءلة علاقة الإنسان ببيئته؛ وهو في جوهره دعوةً ضمنيةً إلى مراجعة موقع القارئ داخل النسق الإيكولوجي، وتبني رؤيةً تشاركيةً إزاء الكائنات والأمكنة من حوله، وقد أسهم هذا التداخل بين البلاغة الطبيعية والوعي البيئي في ترسيخ النقد البيئي كمنهج تحليلي قادر على كشف هذه الأبعاد واستجلاء تمثالاتها النصية، وهو ما سنفصله في القسم التالي.

5. مفهوم النقد البيئي ودوره:

ينطلق النقد البيئي (Ecocriticism) من مقارنة الأعمال الأدبية والفنية من منظور العلاقة بين الإنسان والعالم الطبيعي، استقصاءً لطرائق تمثيل البيئة وتموضع البشر حيالها، وقد تبلور هذا الحقل بوصفه فرعاً حديثاً نسبياً من النقد الأدبي، في صيغة مؤسسية منذ تسعينيات القرن الماضي، واتسم بصلته الوثيقة بالقضايا الراهنة، حيث تتفاقم الأزمات الإيكولوجية، لذا اكتسب بعداً تطبيقياً وأخلاقياً يتجاوز حدود التحليل الجمالي الخالص، إذ يستهدف رصد تمثيلات الطبيعة، ومساءلة مركزية الإنسان وتداعيات الفعل البشري على النظم البيئية. وفيما يأتي أبرز ملامح النقد البيئي ودوره:

— العدسة الخضراء في قراءة النص: يُشبه النقد البيئي بوضع عدسة خضراء، يقرأ بها الناقد النص الأدبي، بما يعني تركيز الانتباه على العناصر المرتبطة بالبيئة: توصيف المناظر الطبيعية وحضور الحيوان والنبات، ودلالات الأمكنة وممارسات الشخصيات تجاه محيطها، والرموز والإيحاءات الإيكولوجية، تكشف هذه القراءة كيف تُجسّد الأعمال رؤية الإنسان للطبيعة، فهي نظرة استعلاء واستغلال، أم احترام وتقدير (Dreese, 2002, p. 3) وقد

يُظهر النافذ مثلاً ثنائية «الضباب» في قصيدة ما بوصفها علامةً على التباس علاقة الإنسان ببيئته، أو يفكّك روايةً عن التصحّر ليبين كيف تُجسّد شخصياتها أزمةً فقدان الأرض والاقتلاع.

— تأصيل المصطلحات والمفاهيم البيئية في الدراسات الأدبية: ينهض النقد البيئي بمهمة تعريب وتوطين المفاهيم الإيكولوجية داخل الحقل النقدي؛ ففي السياق العربي تبلورت ترجمات لمصطلحات مثل Ecology (علم البيئة)، و Deep Ecology (الإيكولوجيا العميقة)، و Environmentalism (حماية البيئة)، إلى جانب مفاهيم مثل الأثر الكربوني والبصمة البيئية، في قراءات تُعالج التلوّث والتغيّر المناخي في النصوص المعاصرة. ويُعدّ هذا التأصيل المصطلحي شرطاً معرفياً لربط الأدب بسياقٍ علميٍّ وثقافيٍّ أوسع، وتمكين أدوات التحليل من التقاط الدلالات البيئية في مستوياتها الجمالية والأخلاقية معاً.

— الكشف عن موقف الكاتب من الطبيعة: يرصد النقد البيئي تمثّل الطبيعة في النص للكشف عن الأيديولوجيا البيئية الكامنة فيه، فيبين ما إذا كانت الطبيعة تُقدّم كذاتٍ جديرة بالحماية، أم تُحتزل إلى مجرد موردٍ أو خلفية لأفعال الإنسان، استناداً إلى تحليل الشخصيات والفضاءات وخيارات السرد بوصفها دلائل على الموقف الضمني. ويؤدّي هذا الرصد وظيفةً تقويميةً؛ فيقدّر النصوص التي تُعيد مركزية الطبيعة وتدعم الاستدامة والتوازن الإيكولوجي، ويفكّك خطابات تفوّق التقنية التي تتجاهل التبعات البيئية.

— إبراز الأصوات المهمّشة في النص: غالباً ما يهتم النقد البيئي بإبراز حضور العناصر التي قد يهملها النقد التقليدي كأصوات الكائنات والطبيعة التي قد تكون مُهمّشة في النص، بتتبّع الآليات السردية التي تسند لغير البشر فاعليّةً وصوتاً، أو تُقصيهم وتحوّلهم إلى كيانات صامتة مُستثمرة بشرياً، ويُقارب هذا الإسكات بوصفه خطأً بنيوياً من القمع، بما يفتح تقاطعاتٍ مع النسوية البيئية والدراسات ما بعد الكولونيالية في تفكيك صلات الهيمنة على الأرض وأشكال الاضطهاد الاجتماعي.

— دور توعوي وأخلاقي: يضطلع النقد البيئي إلى جانب التحليل بوظيفةٍ توعوية وأخلاقية، إذ يساهم في تنمية الحسّ البيئي لدى القارئ وإعادة تقويم علاقته بالطبيعة، بوصل الأدب بحركةٍ أوسع لتعزيز الوعي المجتمعي، ومع ذلك يُنبّه باحثون مثل جرارد جراك إلى عدم تحميله ما يفوق طاقته، فهو نقدٌ أدبي يساهم في فهم الإشكالات البيئية وتعزيز الوعي بها، لا بديلاً عن البحث العلمي أو الفعل السياسي المباشر (Garrard, 2023, pp. 5-2).

يتّضح ممّا تقدّم أنّ النقد البيئي يشكّل مقارنة معرفيّة خصبة تفتح زوايا جديدة لقراءة الأدب، بوصل النصّ بسياقَيْه المادّي والأخلاقي، ومن ثمّ فإنّ فحصه من منظور العلاقة مع الأرض والماء والكائنات يتيح إدراكاً أعمق لدلالاته ومعانيه، من حيث أن العمل الأدبي لا يتولّد في فراغ اجتماعي أو طبيعي، في هذا الإطار يصبح النقد البيئي جسراً حيويّاً بين العلوم الإنسانيّة والعلوم الطبيعيّة والبيئيّة، إذ يستعير مفاهيم إيكولوجيّة ويوطّنها داخل التحليل الثقافي. تمتدّ هذه

الجسور المعرفية إلى حقل الترجمة، حيث سنبيّن في القسم التالي؛ كيف تُعدو الترجمة وسيطاً فاعلاً لنقل التصورات والصور البيئية عبر اللغات.

6. الترجمة كأداة لنقل الأدب البيئي:

يُعدّ الأدب البيئي في جوهره؛ حاملاً لرسالة إنسانية كونية تتخطى حدود المكان واللغة، وتنهض ترجمته بوظيفة محورية، تُتيح للخبرات البيئية المحلية أن تُدرج ضمن الخطاب البيئي العالمي وأن تُسهم في تشكيله، فالترجمة تضطلع بدور جوهري في تدويل الأدب البيئي، إذ تفتح قنوات للتشاقف وتعميم المعارف التطبيقية، ما يعزّز الوعي البيئي عالمياً ويُيسّر تبادل التجارب والخبرات في هذا المضمار. ويمكن إبراز القيمة المعرفية والعملية للترجمة في حقل الأدب البيئي في قدرتها على تعميم المفاهيم والرؤى البيئية عبر اللغات والثقافات، مثل الاستدامة ونقد الاستهلاك وأخلاقيات التعايش مع الكائنات، فتنقل حلولاً وتجارب قد تلهم سياقات تواجه أزمات مقارنة كشح المياه أو تدهور الموائل، وفي الوقت نفسه تُثري الحقل الأدبي المحلي بتمثيلات طبيعية متنوعة وتقنيات سردية جديدة، إذ تفتح للقارئ والكاتب آفاقاً على بيئات بعيدة كالغابات المطيرة والأقاليم القطبية والأدغال المدارية، وتتيح تفاعلات ثقافية أصيلة معها، بما يحفز إنتاج أدب بيئي محلي يستفيد من التراكم العالمي ويعيد توطينه نقدياً وجمالياً.

كما تنهض الترجمة بدور تأسيسيّ في بناء خطاب بيئيّ عابر للغات، إذ تُنشئ أرضية معرفية مشتركة يتداول عبرها القراء والباحثون أسئلة المصير البيئي والتحديات الكوكبية، بما يعزّز إدراك البيئة بوصفها شأناً إنسانياً عاماً يحفز التعاون الدولي، وقد أكّد مايكل كرونن في حديثه عن مركزية الترجمة في بناء ترابط معرفي كوكبي؛ هذا الدور بوصفه إسهاماً في تشكيل "إيكولوجيا للمعرفة" تتفاعل فيها الرؤى البيئية بين الثقافات (Cronin, 2017, p. 13) زيادة على ذلك يقدّم الأدب البيئي المترجم نماذج سردية بديلة كتمركز الطبيعة في الحكمة أو حضور بطل غير بشري، تكسر النمطية وتوسّع أفق التلقّي، كما تتيح إبراز التشابه والاختلاف في تمثيلات الطبيعة بين الثقافات من الأساطير والرموز إلى أخلاقيات التعامل مع الكائنات، بما يعمّق الفهم المتبادل ويعزّز التعاطف مع تجارب بيئية مقارنة عبر الجغرافيا.

على الرغم من مزايا الترجمة الإيكولوجية، فإن نقل هذا النوع من النصوص يطرح تعقيدات مخصوصة؛ إذ يواجه المترجم نصوصاً مفعمة بالوصف الحسي والمصطلحات البيئية والحمولات الثقافية العميقة، فهو مطالب بصون المعلومات العلمية والثقافية، وفي الوقت ذاته بإعادة توليف الصور والإيقاعات بما يحافظ على أثر النص وروحه في اللغة المستهدفة. وغالباً ما يقتضي ذلك تعضيداً معرفياً إضافياً، كالإلمام بأسماء الأنواع النباتية والحيوانية أو العادات البيئية المحلية، وذلك لضمان الضبط الاصطلاحي والسلامة الدلالية.

7. تحديات ترجمة الأدب البيئي:

بالنظر إلى ما تقدّم، نستنتج أن مترجم الأدب البيئيّ يواجه طيفاً متنوعاً من التحديات اللغوية والثقافية؛ منها ما يلتقي مع إشكالات الترجمة الأدبية عموماً، ومنها ما يتفرد به هذا الحقل بحكم خصوصية موضوعه وتمثيلاته للطبيعة. وفيما يلي نستعرض ما نعتبره من أبرز هذه التحديات وطرائق معالجتها:

— ترجمة الصور البيئية والاستعارات الطبيعية: يتكتّف في الأدب البيئي حضورُ الصور البلاغية المستمدّة من الطبيعة؛ من استعاراتٍ وتشبيهاتٍ ورموز، مما يجعل نقلها تحديًا يتجاوز الحرفية إلى فهم مكنونها الثقافي والدلالي، فصورٌ بعينها قد تُعدّ كونيّة الدلالة، كالبحر للدلالة على الامتداد واللاتناهي، بينما ترتبط أخرى بسياقات ثقافية مخصوصة وتتطلّب مواءمة واعية، ولذا على المترجم أن يستحضر خلفيات التلقي ورصيده الإيكولوجي الرمزي، فصورة «شجرة السنديان العجوز الحكيمة» المتداولة في الآداب الغربية، تُعدّ استعارةً تُحيل إلى السنديان أو البلوط بوصفه شجرًا معمرًا شديد الصلابة وطويل العمر ووفير الحجم، وتحمله في المخيال الثقافي الغربي دلالات الرسوخ والصمود والأصالة والتراث، هذا المجاز قد لا يُحدث الأثر نفسه لدى قارئٍ يتشكّل خياله في بيئة صحراوية خالية من الأشجار الضخمة. والمبدأ هنا أن تُصان وظيفة الصورة وأثرها الجمالي عبر خيارات متدرّجة إما إبقاءً مفسّر أو معادلٌ ثقافي وظيفي، أو تعويضٌ تصويري في موضع آخر، مع مراعاة الإيقاع والأسلوب لضمان انتقال الجمال والدلالة معًا. عند مواجهة الاستعارات الطبيعية، يُعمل المترجم مفاضلةً دقيقة بين الإبقاء والتعويض، أي بين الحفاظ على الصورة كما وردت مكتفيًا بتفسيرٍ إيجائي داخل السياق أو بإيضاح موجز في الهامش، وبين استبدالها بمعادلٍ ثقافي وظيفي أقرب إلى مخزون القارئ كاستحضار النخلة رمزًا للرسوخ والحكمة في الثقافة العربية. يتطلّب القارئ موازنةً بين أمانة المرجع الأصلي ونقل الأثر الجمالي والانفعالي إلى أفق التلقي الجديد، وغالبًا ما يُستحسن الإبقاء على الصورة إذا كانت فريدة ومرتبطة ببيئة الكاتب الإيكولوجية كإبقاء زهرة لوتس بريّة نادرة، لما تنطوي عليه من قيمة معرفية وتمثيلية، أما إذا كانت الاستعارة لا تتجاوز كونها تعبيرًا شائعًا في لغتها الأصلية، لكن حُرْفِيَّتُها مُربكة في العربية، جاز اعتماد مقابلٍ متداولٍ يحفظ الوظيفة البلاغية. في جميع الأحوال، يبذل المترجم جهدًا مركّبًا لصون اللوحة الوصفية والإيقاع التصويري، بحيث يُستعاد تأثير النص وطاقته التخيلية في اللغة الهدف دون إخلالٍ بدقته الدلالية.

— ترجمة اللهجات البيئية والمفردات الدارجة: غالبًا ما تُسند الرواية البيئية أصواتها إلى فاعلين يرتبطون مباشرةً بالحيث الطبيعي (صيّادون، فلاحون، سكّان أصليون)، فتستحضر لهجات محلية ومفردات وعبارات متداولة تضيف على النص صدقيّةً وتموضعًا جغرافيًا وثقافيًا، غير أنّ هذه السمات نفسها تُحدث إشكالًا ترجميًا من حيث نقل اللهجة إلى لهجةٍ مقابلة في اللغة الهدف، أم تسويتها إلى فصحيّ مُيسّرة مع الإيجاء في الأسلوب بالانتماء الطبقي دون إسقاطٍ لهويّةٍ لهجيّةٍ بعينها. تميل المقاربة الحذرة إلى الخيار الثاني لتفادي الوقوع في تغريبٍ مُضللٍ يجعل الشخصية تبدو من بيئةٍ مغايرة تمامًا. وفي ما يتّصل بالمصطلحات البيئية الدارجة أو الألفاظ المحلية كأسماء النباتات والحيوانات، أو المفاهيم المكانية، تقتضي الممارسة ترجيح حلّ توفيقٍ بإثبات اللفظة بصيغتها الأصلية مُعزّبةً للدلالة على خصوصيتها، على سبيل المثال ترجمة مفهوم بيئي مثل «tundra» الواردة في رواية أميركية عن ألاسكا بـ: «توندرا» مع تعريفٍ وصفيٍّ مُقتضبٍ بين قوسين: (سهلٌ قطبيٌّ مُتجمّدٌ خالٍ من الأشجار).

بهذه الكيفية تُصان الإشارة المحليّة والسِّمَة الإثنو-بيئية للنص، من غير إرباكٍ للقارئ أو تضيقٍ للمدلول الاصطلاحي.

— ترجمة العناصر الثقافية المرتبطة بالبيئة: والتي تتطلب وعياً أنثروبولوجياً ودقّة تداوليّة؛ إذ تتمثّل علاقة المجتمع بيئته في عاداتٍ وتقاليده وأمثالٍ ومعتقداتٍ وطقوسٍ تحمل كثافةً دلاليّةً لا يمكن للحرفيّة نقلها، وتقتضي الممارسة الجيدة نقل الدلالة الثقافيّة الكامنة وراء الفعل أو الرمز مع صون خصوصيّة الإيكولوجيّة. فترجمة العادة البدويّة بوضع إناء ماء للطيور عند المنزل ترجمة تفسيرية إلى الإنجليزية بصياغة من قبيل: *placed a bowl of water outside the tent as an offering of mercy for thirsty birds*، يبيّن البعد الأخلاقي الذي لا يظهر في الترجمة الحرفية. وفي المقابل وعلى سبيل المثال يُترجم «الهانامي» الياباني إلى العربية «مهرجان تأمل أزهار الكرز»، مع إمكان الإبقاء على اللفظة منقحرة لحرفها الثقافي. وتندرج في السياق ذاته المعتقدات والأساطير البيئية المحليّة؛ كتصوّر روح حارسة للغابة أو تحريم قتل حيوانٍ بعينه، حيث تُفضّل الصياغة الإيضاحية التي تحفظ البنية الاعتقاديّة وتجنب الغموض، وتتيح مجموعة أدواتٍ ترجميّة كالتقريب الوظيفي والتوطين والتعريب مع شرح مقتضب والهوامش والملاحق عند الحاجة، تجسّر الفجوة المعرفيّة بين الثقافتين من غير إفقادٍ لعمق النصّ أو تشويهٍ لحمولته الرمزيّة.

— ترجمة «صوت الطبيعة» وتجسيده: يُعدّ الحفاظ على ما يمكن تسميته صوت الطبيعة في النصوص البيئية من أدقّ التحديات الأسلوبية؛ إذ لا يتعلق الأمر بنقل الدلالة المعجمية فحسب، بل بترحيل النبرة والإيقاع والجرس الصوتي الذي يمنح العناصر الطبيعية حسّ الحياة والفاعلية، حيث يستخدم الكتاب لهذا الغرض أدواتٍ بلاغيّة وإيقاعيّة تومئ إلى همس الرياح وخفق الأوراق وهدير البحر ورجع الصدى في الفلوات، وتقتضي الممارسة الترجمة الناجحة إعادة تشكيلٍ محسوبةً للجملة بما يصون الأثر السمعي والوجداني: فمقابلته *Hush... said the wind through the willows* قد تُصاغ «همسّ الرياح بين أغصان الصفصاف»، ومهمة المترجم هنا ليست ترجمة كلمات الرياح فقط، بل ترجمة النبرة والإيقاع الذي يُشعر القارئ بأن هذه العناصر كائنات حية، وربما يحتاج المترجم إلى إعادة تشكيل الجملة لتحقيق تأثير مشابه، بحيث ينقل صوت الهسيس اللطيف، وإذا كان النص الأصلي يوحى بإحداث الخشبة عند سماع صوت الرعد المفاجئ بوصف قوي، على الترجمة أن تسبب شعوراً مشابهاً، وقد يختار المترجم ألفاظاً فيها حروف ثقيلة وإيقاعاتٍ لوصف دوى الرعد وإيصال وقعه في النفس. وينطبق ذلك على محاكاة الأصوات (onomatopoeia) وتمثيلها عبر مفردات عربية مألوّفة مثل «يعوي الذئب» أو «تعب البومة»، وإذا وُجدت محاكاة صوتية فعلى المترجم اتخاذ القرار إما الاحتفاظ بها إن كانت مفهومة، أو استبدالها بنظيرٍ محليٍّ راجح إن اقتضى المقام. والمبدأ الحاكم أن تتعاضد الأمانة الدلالية مع الإبداع الأسلوبي كي يحتفظ النصّ المترجم بروحه البيئية وتأثيره الحسيّ في أفق التلقي العربي.

— معضلة المصطلحات العلمية والتقنية: تُقَحِّم بعضُ نصوص الأدب البيئي؛ وخاصة السرد المعاصر والكتابات غير الروائية الموجهة للعموم، جهازًا اصطلاحيًا علميًا دقيقًا، ما يفرض على المترجم تحريّ المقابلات العربية الموثوقة وتدقيقها في مصادر علمية معتمدة أو باستشارة المختصين، فإذا توافر الاسم العربي القياسي استُخدم مثل «السنديان الأحمر» لـ *Quercus rubra*، وإلا حُسِّن الإبقاء على الاسم العلمي بصيغته اللاتينية مقرونًا بوصفٍ عربي موجز يبيّن النوع ووظيفته في السياق. وينسحب الأمر على المصطلحات المفهومية الراسخة كالבصمة الكربونية والتنوع الأحيائي أو البيولوجي إذ ينبغي إدماجها في النسيج الأسلوبي للنص دون ترهلٍ تقريرِي؛ فصيغة من قبيل: “The novel subtly addresses the issue of biodiversity loss in the tropical forest” إذا ترجمت بـ «تعالج الرواية على نحوٍ موارد قضية تناقص التنوع الأحيائي في الغابة الاستوائية» فهي تحافظ على الدقة وتتفادى جفاف الخطاب العلمي، فهنا اختيار “التنوع الأحيائي” لأنه المصطلح البيئي المعروف، وعند احتمال اللبس يُستحسن تعريفُ سياقيٍّ مقتضب داخل السرد بدل إغراق القارئ بهوامش متكاثرة. هكذا تتحقّق الموازنة بين الانضباط الاصطلاحي وجماليّات البيان، بما يصون علميّة المفهوم وروحهُ الأدبية معًا.

بوجهٍ عام تستلزم ترجمة الأدب البيئي درجةً عالية من اليقظة اللغوية والحسّ الثقافي؛ فالمترجم مُطالبٌ برصد التفاصيل الدلالية والبلاغية والاصطلاحية الدقيقة، وبالمرونة اللازمة للانتقال بين مستويات الخطاب من الفصحي إلى الإيحائيّات اللهجية، وبين الحجاج الجمالي والمفاهيم العلمية، بما يضمن سلامة المعنى واستمرار الأثر الجمالي في اللغة الهدف. وفي القسم التطبيقي التالي سنعرض نموذجًا من ترجمة نص بيئي، لتبيّن كيف واجه المترجم تحديات الصور البيئية وتمثيلات اللهجات والعناصر الثقافية وصوت الطبيعة، مع تحليل ومقارنة الأصل بالمنقول للكشف عن الاستراتيجيات الناجعة ومواطن التعرّث على السواء.

8. مثال تطبيقي: دراسة حالة لترجمة رواية بيئية

مقطع من ترجمة الرواية البيئية *The Call of the Wild* (نداء البراري لجاك لندن) من الإنجليزية إلى العربية. تُعدّ رواية «نداء البريّة أو البراري» (*The Call of the Wild*) لجاك لندن (1903) من الكلاسيكيات الأدبية التي تتمحور حول تمثيل الطبيعة والحيوان في السرد الحديث، إذ تتقصّى عبر سيرة الكلب «باك»، تحوّل الكائن من ألفة البيت المترف في كاليفورنيا إلى خشونة براري ألاسكا إبان حُمى ذهب كلوندايك، في مسارٍ يُغذّيه نداء بدائيّ يستردّ غرائز القيادة والعيش في القطيع. وتنهض الرواية بلمحٍ بيئيّ واضح من خلال إبراز قسوة البيئة الثلجية وجمالها معًا، وصراع البقاء في شروطٍ مناخية قصوى. وقد حظيت الرواية بترجمات عربية عدّة منذ مطلع القرن العشرين؛ وسنعمد هنا ترجمة صبري الفضل الصادرة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب (1994) بعنوان «نداء البراري». ونحلّل فيما يلي مقطعًا من النص الإنجليزي ومقابله العربي للكشف عن استراتيجيات الترجمة في تمثيل المشهد الطبيعي، وصوت الحيوان وإيقاع السرد، وكيفية موازنة الدقة المعجمية بجماليّات الأسلوب.

في إحدى المشاهد الشهيرة في الرواية، يختبر "باك" حياة البراري لأول مرة بعد أن تم جلبه إلى بلدة "دايه" في ألاسكا. يصف جاك لندن هذا المشهد كالآتي:

"Buck's first day on Dyea beach was like a nightmare. Every hour was filled with shock and surprise. He had been suddenly jerked from the heart of civilization and flung into the heart of things primordial. No lazy, sun-kissed life was this, with nothing to do but loaf and be bored. Here was neither peace, nor rest, nor a moment's safety. All was confusion and action, and every moment life and limb were in peril. There was imperative need to be constantly alert; for these dogs and men were not town dogs and men. They were savages, all of them, who knew no law but the law of club and fang." (London, 1903, p. 43).

في ترجمة صبري الفضل للعربية، نقرأ ما يقابل ذلك المقطع:

"كان أول يوم لباك في هذه البلاد الجديدة كحلم سيئ ... وكانت كل ساعة مليئة بالمفاجآت المدهشة. لقد ألقوا به بغتة في عالم البراري ... ولم تكن هذه حياة كسل واسترخاء، تقبلها الشمس قبلة حانية بلا عمل سوى مضیعة للوقت. فلا يوجد هنا أي قدر من السلام أو الراحة أو حتى لحظة أمان. فكان من الضروري عليه أن يكون متيقظاً دائماً الحذر، لأن هذه الكلاب وهؤلاء الرجال ليسوا كلاب مدن ولا رجال مدن. بل كانوا، جميعهم، متوحشين عنيفين، ولا يعرفون سوى قانون القوة." (جاك، 1994، صفحة 31).

نلخص الملاحظات حول الترجمة في النقاط الآتية:

— العلامات المكانية/البيئية (Toponyms & Setting): تمثل العلامات المكانية أو البيئية (الطوبونيميا والفضاء السردى) ركيزة دلالية في الإيكو-سرد؛ إذ لا تؤدي وظيفة التعيين الجغرافى فحسب، بل تُثبت أيضاً مصفوفة البيئة التي ينبنى عليها المعنى، من هنا تبدو إحالة الأصل إلى Dyea beach حاسمة لأنها تُنشِط شبكة مرجعية مخصوصة تتمثل في طريق كلوندايك والمناخ دون-القطبي، ومسارات المنقبين وعنف البراري المرتبط تاريخياً بألاسكا (يوكون). أمّا الاستعاضة في الترجمة بعبارة عامة من قبيل «هذه البلاد الجديدة» فأفقدت النصّ دقته الإيكولوجية وسطّحت أثر المكان بوصفه عاملاً مُشكِّلاً للسلوك والخطر والإيقاع الحيوي. لذلك كان يُستحسن تعريب الاسم وإبقائه داخل المتن كأن نقول: «كان أول يوم لباك على شاطئ دايا أشبه بكابوس...»، مع إمكان إرفاق تعريف موجز عند الورود الأول (دايا: مرفأ تاريخي على طريق كلوندايك في ألاسكا)، أو إحالة هامشية موجزة. هذا الخيار يجمع بين أمانة التعيين المكاني ودقته من جهة، وبين وضوح التلقي من جهة أخرى، ويصون البعد البيئي للنص بما هو سرد في موقع محدد لا في فضاء عام مُفرغ من خصائصه المناخية والثقافية.

— نبرة الفجائية والاقتلاع (Shock & Primordial): تنهض عبارة الأصل "suddenly jerked ... flung into the heart of things primordial" على بنية تصويرية تُجسّد الاقتلاع القسري من قلب الحضارة إلى الحياة البدائية، عبر فعّالين شديدي العنف (jerked / flung) وعليه فإن المحافظة على نبرة الفجاءة والصدمة تستلزم في العربية استعادة هذه العناصر معاً، أي الإبقاء على المبني للمجهول (اقتلع/ألقي به)

لتثبيت الإحساس بالانجراف القَدري، وتوظيف معجمٍ قويّ الإيحاء (اقتُلِع *jerked*، أُلقي *flung*)، وتأکید المقابلة البلاغية بين «قلب الحضارة» و«قلب الحياة البدائية» بوصفها محورًا دلاليًا يَشَدُّ الإيقاع. أما ترجمة «things primordial» بـ «البراري» فتُخَفِّف الحمولات الكوسمولوجية للموروث البدائي؛ إذ يحيل primordial إلى حالة وجودية أنطولوجية أعمق من البراري بوصفها مكانًا، لذلك فإن صيغة «اقتُلِع بَغْتَةً من قلب الحضارة وأُلقي في قلب الحياة البدائية» أنسب، لأنها تُعيد الزمنية المفاجئة في كلمة (بَغْتَةً)، وتُحافظ على توازي البنى (قلب ... / قلب ...)، وتستعيد الطبقة الأنطولوجية لـ *primordial* حياة بدائية لا «براري» مكانية. هكذا تُسترجع الطاقة الصدمية للجملة وإيقاعها، وتتجسّد نقطة التحوّل السردية التي تُدشّن الدخول في شيفرة قانون العنف.

— الكثافة الحسية للمشهد البارد: تُعَدّ الكثافة الحسية في هذا المقطع أحد أعمدة البناء الإيكولوجي للسرد؛ فالنص لا يصف برّدًا مجردًا، بل يُكوّن خريطة إدراكية متعددة الحواس والمتمثلة في ضوء الشمس المتلاشي (مقابل *sun-kissed life*) وبياض الثلج المتهاطل وعصف الريح، ثم طبقةً ثالثة أشدّ توترًا تُشكّلها جملتنا “*All was confusion and action, and every moment life and limb were in peril.*” تُفحمان القارئ في حالة إنذار دائم، واضطراب وحركة لا تهدآن، وخطر ملازم للحياة والجسد في كل لحظة. إن سقوط هاتين الجملتين في الترجمة خلخل المجسّ الحسي للنص؛ إذ يُضعف الإحساس بالاختناق الحركي وبالقابلية المستمرة للتعرّض للأذى، وهما لازمتان لإبراز تحوّل المكان إلى قوّة فاعلة تضبط السلوك. ومن منظور إيكو-ترجمي، يحسن استكمال الطيف الإدراكي بإعادة بناء هذه الطبقة الحسية على نحوٍ موجز ومشدود الإيقاع، مثل: «كلُّ شيءٍ حراكٌ وارتباكٌ، وفي كلّ لحظةٍ كانت النفسُ والجسدُ على شفا الخطر». هذه الصياغة تحفظ ثنائية *confusion/action* بتوازٍ إيقاعي، وتستعيد مقابلة *life and limb* عبر «النفس والجسد»، فتُبقي على وحدة المعنى وعلى نبض الجملة الأصلية. وتجسّد مشهدًا باردًا لا يُدرك بالبصر والسمع فحسب، بل يُحسّ كتوترٍ جسديٍّ مستمر، وهو ما يحتاجه هذا الموضع لتدشين مناخ عنيف، بوصفه شرطًا بيئيًا اجتماعيًا لا مجرد خلفية وصفية.

— الإيقاع والتركيب المتوازي: يُعَدّ هذا المقطع نموذجًا لبناءٍ إيقاعيٍّ يعتمد التوازي السليبي (*neither... nor...*) بوظيفةٍ دلاليةٍ ونبريةٍ معًا، إن تكرار النافي يراكم الإحساس بانسداد منافذ الطمأنينة عبر الثلاثية (*nor...*) (سلام/راحة/أمان) التي تُحدث قفلةً مُحْكَمَةً، في اللغة العربية؛ يستجيب لهذا الإيقاع تركيبٌ «لا ... ولا ...» بوصفه مقابلًا طبيعيًا يحافظ على التناظر الصوتي ووحدة النَّفس. لذلك تُضَعِف إضافات مثل «أيّ قدرٍ من» شدّة الضربة الإيقاعية، لأنها تفكّك التوازي وتطيل المسافة بين الأركان، والأفصح شدّ العبارة إلى قافيةٍ قصيرةٍ الوتر، مع اقتصادٍ معجميٍّ يبرز جِدّة النفي ويُقارب التقطيع الأصلي مثل: «لا سلامَ هنا، ولا راحةً، ولا لحظةً أمانٍ». ويمكن تقوية الخاتمة بدلالةٍ تصعيديةٍ بحسب السياق: «لا سلامَ هنا، ولا راحةً، ولا أدنى فسحةٍ

للأمان.» كلا الصيغتين يحفظ التثليث، ويُقَي على الإيقاع المتدرّج نحو قفلة قاطعة، ويستعيد الوظيفة التفخيمية للتكرار بوصفه أداة توتيرٍ دلاليٍّ لا مجرد زخرفةٍ أسلوبية.

— معجم “قانون البرية” (Eco-ethos motif): يمثّل تركيب “the law of club and fang” محوراً دلاليّاً وسيميائياً في الرواية؛ فهو ليس توصيفاً عامّاً للقوّة بقدر ما هو أيقونة حسّية تؤسّس لأخلاقيات البرية (eco-ethos) عبر علامتين مجسّدتين في الهراوة أو العصا وهي تمثيل للهيمنة البشرية والعقاب، والناّب أو المخلّب يمثل الغريزة الحيوانية والافتراس، هاتان العلامتان تعلمان بوصفهما مجازين كلّ منهما جزءاً مادّي ينهض مقام منظومة أخلاقية كاملة مبنية على السلطة القسرية والبقاء بالافتراس، لذلك تُفقدُ عبارة «قانون القوّة» البناء التصويري والبعد الإجرائي الذي سيعود مراراً في النص كمفتاح تأويليٍ لصراعات باك، كما تُسقط التوازي الصوتي والدلالي الذي يصعد الإيقاع (club / fang). أما إيكولوجيّاً يحفّز التركيب الأصلي قراءةً تُظهر تداخل المناخ الاجتماعي والمناخ الحيوي؛ الإنسان يُؤنس البرية بعصاه، والبرية تُوحش الإنسان بناجها، من هنا تأتي أهمية الحفاظ على الصورة في اللغة العربية «قانون الهراوة والناّب» أو «العصا والناّب»، هذا المقابل من شأنه أن يصون الحسّية بدل تجريدٍ قيميّ مبهم، ويتيح تراكمًا مرجعيّاً عبر الرواية كلّما ظهرت آثارها على سلوك البشر والكلاب ويحفظ الإيقاع الثنائي الذي يقوم عليه خطاب البرية: أداة بشرية و أداة حيوانية. بهذه الطريقة تُستعاد المصدريّة الإيكولوجية للأخلاق التي يقترحها النص، وتُحافظ على قوّة الرمز المؤسّس لخطاب البرية في الرواية.

— درجة التغريب: تمثّل درجة التغريب أو التوطن خياراً حاسماً في الترجمة الإيكولوجية، لأن العلامات المكانية والرمزية ليست زينة لغوية؛ بل مفاتيح بيئية ومعرفية. إنّ الاحتفاظ بـ«دايا» (Dyea) بوصفها طوبونيمياً مُعرّباً، وتثبيت «قانون الهراوة والناّب» كمقابلٍ دقيق لـ *the law of club and fang*، يفعّلان استراتيجية تغريبٍ مُوجّه تُبقي القارئ في تماسٍ مباشر مع جغرافيا الحدث وإيكولوجيته الرمزية؛ فالأوّل يرسّخ فضاء الكولوندايك وما يستتبعه من مناخٍ دون قطبي ومسارات تاريخية، والثاني يحفظ الأيقونة الحسّية لنظام الأخلاق البرية بدل تبديدها في تجريدٍ عام من قبيل «قانون القوّة». بهذا المعنى يخدم التغريب المقاربة الإيكولوجية لأنه يصون أثر المكان وكثافة المدلول الحسي، ويتيح تراكمًا مرجعيّاً عبر النص كلّما عادت العلامتان. وفي الوقت نفسه يمكن ضبط تبعات التغريب على القارئ عبر تعريف سياقي موجز عند ورود الأوّل كهامش أو شرح مضمّن مقتضب، ثم الالتزام بالمصطلح المعرب بلا ترادف مربك، فالتغريب يحافظ على خصوصية العالم المترجم، دون أن يقطع الجسر مع قارئ العربية أو يفرّغ المشهد من دلالاته المناخية والثقافية، وبهذا يتحقق توازنٌ بين أمانة العلامة البيئية ووضوح التلقي.

— الدقّة اللغوية والأسلوب: تمثّل الدقّة اللغوية والأسلوبية شرطاً بنيويّاً في نقل المشاهد عالية التوتّر؛ إذ يؤدّي الخلل الكتابي «ألقوا» بدل «ألقي» إلى كسرٍ فوري في المصادقية الأسلوبية، كما تُنتج التركيبات الحشوية مثل «من الضروري عليه أن يكون» بطناً إيقاعياً يناقض سرعة الحدث وقلقه. والأوّل في مثل هذا السياق، اقتصاداً

معجمي يشدّ العبارة ويُقيي النَّفس مشدودًا كأن نقول: «كان لزامًا أن يظلّ متيقظًا» أو حتى «كان لا بدّ أن يظلّ يقظًا». على المستوى النحوي، يُفضّل اختيار صيغٍ تُجسّد الاستمرارية (يظلّ/يُقيي) والإلزام (كان لزامًا/لا بدّ) بدل صيغٍ إخبارية مائعة؛ وعلى مستوى المعجم تُنتقى أفعالٌ مشحونة الدلالة (اقتلّع/ألقي). كما يُستحسن تحرير الجُمْل من الزوائد مثل «أيّ قدر من»، وتوحيد السجّل البلاغي لتفادي التردّد بين فصيح رصين وتعبير دارج، وضبط الإيقاع بعطفٍ متوازنٍ وقوافٍ معنويّة واضحة مثل «لا سلام هنا، ولا راحة، ولا لحظة أمان». هذه التقنيّات هي تصحيحٌ نحوي واقتصادٌ لفظي، وتفعيلٌ دلالي للإلزام والاستمرارية، تحافظ على توتر المشهد وتُقارب نبض الأصل، مع إبقاء العربية في مستوى بيانيٍّ محكم يخدم المقاربة الإيكولوجيّة للنص.

– خلاصة تقييمية:

تُظهر المقارنة أن نجاح الترجمة البيئية لا يُقاس بنقل المعنى الحرفي فحسب، بل بقدرتها على صون البنية الإيكولوجية للنص المتمثلة في تعيين المكان بوصفه إطارًا مُشكّلًا للحدث، واستعادة الكثافة الحسيّة متعددة القنوات، والمحافظة على الإيقاع التركيبي والنبرة العاطفية، وترجمة المفاتيح الرمزية بوصفها أيقونات دلالية لا شعارات عامة. كما تؤكد أن الخيارات الأسلوبية كالمبني للمجهول حين يخدم فقدان السيطرة على الذات، والاقتصاد اللفظي حين يُشدّد التوتر، والتوازي حين يراكم الإيقاع ليست زينة لغوية بل أدوات لصنع الأثر، وأن استراتيجيّة التغريب ينبغي أن تكون موجّهة، فتُبقي العلامات البيئية والثقافية وتعرّف بها تعريفًا مقتضبًا، حفاظًا على خصوصية العالم السردى ووضوح التلقي معًا. أخيرًا تُبرز المقارنة أن الدقة اللغوية وتوحيد المصطلح وتناسق السجل الأسلوبي شروطٌ لتمكين صوت الطبيعة من الاشتغال في اللغة الهدف، بما يتيح للترجمة أن تنخرط في المشهد العالمي للأدب البيئي دون خسائر في هويتها الإيكولوجية.

9. خاتمة:

سعى هذا البحث إلى رسم صورةٍ شاملةٍ لتفاعل الترجمة مع الأدب البيئي من منظورين متلازمين، نظريّ وتطبيقيّ، مع التركيز على جنس الرواية بوصفه حقلًا خصبًا لهذه المقاربة، وقد دلّ الجزء النظري على أنّ الأدب البيئي نشأ كاستجابة إبداعية وفكرية للتحديات البيئية الحديثة، فأعاد تموضع الطبيعة في صميم البناء السردى، وأعاد صوغ علاقة الإنسان بالعالم الطبيعي ضمن أفقٍ جماليٍّ عميق. وفي الامتداد ذاته، أسّس النقد البيئي لإطارٍ مفهوميّ يكشف طبقات الدلالة في النصوص البيئية ورسائلها الضمنية، مسلطًا الضوء على القيمة الرمزية والأنطولوجية للطبيعة في الأدب، وعلى قدرة الخطاب الأدبيّ على تشكيل حساسيّة بيئية جديدة ورفد الوعي العام بطرائق قراءةٍ تُنصت إلى العالم غير البشريّ بوصفه شريكًا في المعنى.

تبرز الترجمة في هذا الأفق بوصفها أداة لا غنى عنها لتداول الأدب البيئي عبر الحدود اللغوية والثقافية؛ فهي تفتح لكلّ ثقافة نافذةً على خبرات غيرها في التفاعل مع الطبيعة، وتُتيح تعرّف المشاهد والمتخيّلات الإيكولوجية المتنوعة من الغابات المطيرة والأنهار الجليدية إلى الصحارى وأساطير السكّان، كما تُعرّف بأدباء جعلوا مكوّنات المشهد الطبيعي عناصر فاعلة في البناء السردى. وقد بيّنت هذه الدراسة أنّ الترجمة تسهم في بلورة جبهة أدبية عالمية تواجه القلق الكوكبي

المشترك، المتمثل في حماية البيئة، وفي الوقت نفسه ترضى تعدد الأصوات عبر إتاحة حضور الغابة الأمازونية بلغات شتى، واستعادة صدى الأرض في الأقاليم القطبية، وإيقاع الصحراء في فضاءات قرائية مختلفة؛ وبذلك تغطي التجربة الإنسانية العامة بتنوع الرؤى وتكاملها ضمن أفق جمالي ومعرفي واحد.

ومع ذلك يتبين أنّ ترجمة الأدب البيئي ليست إجراءً تقنيًا آليًا، بل فنٌّ وصناعة دقيقة تستلزمان إلمامًا مزدوجًا بعالمين متوازيين، عالم النصّ الأصلي بحساسياته البيئية والثقافية، وعالم اللغة الهدف بما يتيح من طاقاتٍ تعبيريةٍ ومخزونٍ معجمي. وقد أظهر تحليل طيف التحديّات من كثافة الصور الإيكولوجية وتمثيلات اللهجات المحلية، إلى العناصر الثقافية المرتبطة بالبيئة وأصوات الطبيعة ومصطلحاتها أن مترجم النص البيئي يقوم مقام مستكشفٍ يجوب تضاريس لغويةٍ ومعرفيةٍ متنوعة، فهو محتاجٌ إلى معرفةٍ دقيقة بأسماء الكائنات وطبائعها في اللغتين، وإدراكٍ لرموزها وأساطيرها في الذاكرة الثقافية، وإلى حسٍّ مرهفٍ بالصوت والإيقاع يمكنه من نقل هدير العاصفة وهسيس النسيم ووقع المطر وصرير الصحراء إلى أفقٍ تعبيريّ جديد. على وجه الإيجاز نقول أن المترجم ينهض بوظيفة الوسيط بين بيئتين: بيئة الكاتب الأصلية وبيئة القارئ المستهدف، بما يضمن بقاء الهوية الإيكولوجية للنصّ فاعلةً في اللغة المنقول إليها.

تُظهر القراءة التطبيقية أنّ الدقّة اللغوية وتوحيد المصطلح واتساق السجلّ الأسلوبي ليست مجرد اعتبارات شكلية، بل شروطٌ تشغيلية لتمكين صوت الطبيعة من العمل داخل اللغة الهدف. فحيثما انضبطت المفردات البيئية والعلمية؛ وتناسق الإيقاع والتركيب مع منطق المشهد وخصوصية المكان والرمز، أمكن للنص المترجم أن يستعيد كثافته الحسية ورموزه الإيكولوجية من غير تشويه أو تدوير. ويقتضي ذلك سياسات دقيقة في إدارة العلامات المكانية، وتثبيت المفاتيح الرمزية واستكمال الطيف الإدراكي، مع عناية بالمفوضات المتخصصة ومراجعها، وبالملاحظات النصية عند الحاجة من هوامش مقتضبة وتعاريف أولية موحدة. عندئذٍ تنخرط الترجمة بثقة في المشهد العالمي للأدب البيئي وتحافظ في الوقت نفسه على هويتها الإيكولوجية، بوصفها وعاءً فاعلاً لخبرة ثقافية بيئية مميزة لا تفقد اللون المحلي ولا تُفترط في وضوح التلقي.

ختامًا يتبدى أنّ العلاقة بين الترجمة والأدب البيئي علاقةٌ تكاملٍ وإثراءٍ متبادل، فالأدب البيئي يمدّ الترجمة بمادّة سردية ومعرفية ثرية تنعش اللغات بصورٍ جديدة ومفاهيم دقيقة، فيما تتيح الترجمة تدوير هذه المتخيلات عبر الثقافات، فتُربّخ خطابًا إنسانيًا كونيًا يستدعي محبة الأرض وصورها على الرغم من الحواجز اللغوية، وفي زمن تتفاقم فيه الأزمات البيئية وتتعاظم الحاجة إلى تعاونٍ عابرٍ للحدود، تغدو الترجمة نبيةً تحتيةً للإنصات المتبادل وتداول الخيال البيئي عالميًا، بما يُسهّم في بثّ الوعي وإلهام التغيير وتشبيد أخلاقيةٍ كونيةٍ مشتركة. وهي توصية للمترجمين بممارسة إصغاءٍ دقيقٍ ومسؤولٍ للأصوات غير البشرية، وللكتاب بالثقة بأنّ لغات العالم قادرةٌ على حمل نداء البراري وأصداء الغابات والبحار، من غير تفريطٍ بالخصوصيات المحلية ولا انتقاصٍ من وضوح التلقي.

10. قائمة المراجع:

- جاءك, ل. (1994). *نداء البراري*. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- جزارد, ج. (2009). *النقد البيئي*. *Ecocriticism* أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث.
- مايكل, ب. (2007). *النقد الإيكولوجي*. تر: معين رومية. *نوافذ*. النادي الأدبي الثقافي. بجدة. مجلد 36، ص ص 27- 51.
- Buell, L. (1995). The environmental imagination: Thoreau, nature writing, and the formation of American culture. *Belknap Press of Harvard University Press*, pp. 1–8.
- Buell, L. (1996). Harvard University Press.
- Cronin, M. (2017). *Eco-Translation: Translation and Ecology in the Age of the Anthropocene (1st ed.)*. Routledge . Récupéré sur <https://doi.org/10.4324/9781315689357>.
- Dahal, A. (2021). The Ecological Vision of Space in Gary Snyder's Ecopoetry. *Interdisciplinary Journal of Management and Social Sciences*, 2(2), pp. 1-5.
- Dreese, D. N. (2002). *Ecocriticism: Creating Self and Place in Environmental and American Indian Literatures*. New York: Peter Lang.
- Garrard, G. (2023). *Ecocriticism (3rd ed.)*. Routledge . Récupéré sur <https://doi.org/10.4324/9781003174011>.
- Kovářová, K. (2019). *What else can nature mean: An ecocritical perspective on Cormac McCarthy's fiction*. *Theory and Practice in English Studies*.
- London, J. (1903). *The Call of the Wild*. New York & London: The Macmillan Company.